

## ٢ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوي

## نقد العقل الخالص La critique de le raison pure

ليست غاية هذا النقد لإجباط نتائج العلم النظري ، ولكن غايته أن يسيّره في مناهجه الواضحة ، فالعلم النظري الذي كان في عهد ما ملك العلوم قد فقد تأثيره ، لأنه قد آلى على نفسه أن يتوجه لباحث تكاد لا تعنى شيئاً ، يريد من ورائها التحقيق ، وهي - كل يوم - ينقضها من عالم الواقع ألف برهان وبرهان ، ثم انتهى « كانت » الى الشكوكية ، ثم الحيادية التي يقول عنها : « هذه التي تظهر عند تفتح العلوم ، وتعمل على إظهار العلم الذي خانت ولادته ؛ أليست هذه الحيادية من الأشياء التي تسترعى انتباهنا ؟ إنها والحق ليست بوليدة الخفة ، ولكنها وليدة محاكمة عصر طويل ، شاء ألا يتخضع بظواهر المعرفة كثيراً ، إنما دعوة عنيفة تدعو عقلنا إلى عمل عنيف ، الى معرفة نفسه ، ، وإنما هي تهذب مجلساً يذود عنها ويصون تعاليمها الصحيحة ، ويحكم عليها إذا ظلمت حسب شرائعها ونظمها الثابتة ، وما هذا المجلس إلا مجلس العقل الخالص

والعقل الخالص عند ( كانت ) هو العقل نفسه ، قبل أن يدخل الأمتحان في تلافيفه شيئاً ، هو العقل المجرد قبل أن ينطبع فيه شيء ، وفيه ثلاث قوى نفسانية : الأولى قوة المعرفة التي تنطوي على الإدراك والحكم العقلي ، وترتيب الأحكام ، وهي تبحث عن أكناف الأشياء وحقاتها ، والبحث فيها يتعلق بنقد العقل الخالص . والثانية خاصة الإرادة ، وهي تبحث عن الخير ، ومرجعها الى نقد العقل العملي . والثالثة هي الشعور بالضرورة والشقاء ، وموضوعها الجميل ، ومرجعها الى نقد الحكم ماذا أستطيع أنت أعرف ؟ هنا هو السؤال الذي يضمه الفيلسوف أمام نفسه ، وهو يبتني حله . إن كل معرفة تبدأ عن طريق الاحساس ؛ فكل إحساس يجب أن نفرّق بين مادتين : بين المادة التي تهدينا إليها حواسنا ، وبين الهيئة التي لا يمتثلها العقل من الخارج ، ولكنه يجدها في نفسها متعلقة بهذه المادة ؛

إن في عقلنا إدراكات خالصة ( pure ) مُلهمة ، كالصور الأصلية المنطبعة في أذهاننا ، ومن بين هذه الصور الداخلة في كل امتحان دخولاً اضطرارياً صورتان ، وصفهما ( كانت ) بدقة ومهارة وحكمة . وهما : « معرفة المكان والزمن » فإن هذا القياس ليس له قياس ، أو كما يقول هو عنه ليس له حقيقة مدركة ، وعلمنا المبني على مثله لن يكون نصيبه من الحقيقة أكبر منها ، إذ ليس للزمن والمكان حقيقة ذاتية يمكن إدراكها ، وما الزمن والمكان إلا مقاييس نسبية ادعتها لتساعدنا على إدراك الأشياء ، فهي كالرآة التي تمكس لنا صورة العالم كما نراه نحن محدوداً بمقاييس الزمان والمكان لا كما بُني على حقيقته

وفي وجهة أخرى يرى علمنا كله ليس إلا مظاهر ، يضعف ويقوى بحسب الملاحظة ، ولا يكون قوياً إلا بنا ، لأنه لا يملك شيئاً من الجزم والقوة بنفسه ، وليس يبيد أن يكون وراء عالمنا هذا عوالم يدرك أصحابها معنى هذا الوجود ، بخلاف ما أدركته عقولنا ، ويحدونه بمقاييس تتباين عن مقاييسنا ، والحقيقة أننا فهمنا العالم كما نود أن نفهمه ، وأدركناه كما نستطيع مداركنا أن ندركه ، وهذه الحقيقة التي نسجتنا نحن خيوطها ستظل محاطة بالروعة والجلال ، ولن تنبر الطبيعة نظرتنا إليها حتى تغير أوضاع تفكيرنا وتبدلنا بها أوضاعاً أخرى

وهذه النظرة العميقة هي النقطة التي ترتكز عليها فلسفة كانت ، ومثله الأعلى الذي يفترضه مثلاً أسمى من المثل الشائمة ، فهو يجحد حقيقة العالم الخارجي ، ويرتفع بذاته عن المادية ، ويمتد أن أدوات معرفتنا أداة للأدراك ، لا تقع تحت سلطان الحواس ، لأنها منفردة عنها وأسمى منها . وبهذه الأداة نراه ينتقل الى عالم الله والروح والوجود ، ويؤسس على كل عالم منها فكرة ، ولكن حقيقة هذه العوالم برغم أنها شملت العقل وتشغله وسوف تشغله لا تزال محجوبة عنا ، بل يجد كانت أن تشبثنا بأدراكها عن طريق التجربة لا يفنينا نفعاً ، بل يتركنا فريسة الخيالات والاعتراضات المتتالية

الله ، والروح ، والوجود : ثلاثة أركان متعاقبة لا تبدو للعين حقيقتها

## نقد العقل العملي La critique de la raison pratique

للشاعر هنري هابن دعاة لطيفة ذكرها في كتابه « ألمانيا » قال في جملة بحثه عن كانت : « ولما وصل - أي كانت - إلى

وإذا كان الخير المطلق شرطه الأول هو الفضيلة فهو إذًا داعٍ من  
دواعي السعادة ، بل يوجب العقل أن تكون الفضيلة والسعادة  
من عنصر واحد

لترك الخير المطلق، ولتعتبر الشريعة الأخلاقية وهما أوجه افتراء ،  
أفلا تؤمن بأن هنالك نظاماً شاملاً للأشياء مؤسساً على معنى  
السعادة والفضيلة ، وأن هنالك في قلب الكون علة عاقلة تحكم  
وتسيطر وتربط بين الأجزاء وتؤلف وتفكك ، وهذه العلة تحكم  
وجود الله ؟

وهكذا يرى العقل العملي يقدر له الأثبات بنبر برهان ،  
والعقل النظري بمجزئه أن يبرهن ، ويتساءل (كانت) عن سر التنازع  
بين العقليين :

ولكن أليست الطبيعة التي ابتلت أحدها بالمعجز والوهن  
هي القاسية ؟ ولكن لنفرض أن الطبيعة قد وافقتنا على أمانتنا ،  
ومنحتنا ما تمنيناها منها ، ووهبتنا أنوار الهداية التي نهم فيها ،  
ولنفرض أن البعض مناقد ملك عليها ، فإذا تكون النتيجة ؟  
أندرونها ؟ سيكون الآلهة بعظمتهم وروعته متمثلاً في أعيننا وفق  
أنفسنا ، نطيع شريعته المرسومة طاعة عمياء لا نحمدها  
ولا نعتسف طريقها ، ولكن أعمالنا هذه لا يقودنا إليها الاعضا  
الرهبة تأتها خالية من الفضيلة المبتغاة لذاتها ، وهل يكون كل  
إنسان في كل ما يأتيه الا كآلة الميكانيكية تأتي ما يطلب منها  
وتؤمر به غير واعية ولا شاعرة ؟ إن كل شيء يمضي في السبيل  
القوم ؛ ولكنك تتلمس باطلاً نسمة الحياة تفتح هذه الوجوه  
الشاحبة التي أكلها السأم ...

والآن ، ونحن على هذه الحالة قد دلتنا الكائنات على عظمة  
البدع وزل فينا شرائع الأخلاقية من غير أن تمنينا بالوعود أو  
روعنا بالوعيد ، وانفصح لكل واحد مناسيله يبلغ به المثل الأعلى  
في الوجود

وفي النهاية يقول كانت إن النظام الآلهي مؤسس على شريعة  
الأخلاق ، فإذا وجد الله ، وإذا خلدت الروح فذلك لأنني أشعر  
بأنني أحياناً حراً ، وأن حريتي بدون وجود الله وخلود الروح تقعدو  
وهما باطلاً . الآلهة الحقيقي - عند كانت - هو الحرية ، وما  
آله الديانات الا وزيره الأول ، وهو يحترم الدين بقدر ما يعر  
للأخلاق والفضيلة عهودها وذمهما ، ويرى أن ممارسة الخير هي  
أسمى عمل يحبه الله

خليل هنداري

يجمع

هذه النقطة الثفت وراءه فوجد خادمه الكهل (لامب) يبكي ،  
تقال كانت : إن لامب ليس له إله ... ولكن لا بد له من إله  
يضمن سعادته في العالم فكنتب كانت إذ ذاك نقد العقل العملي ،  
وما العقل العملي إلا نفس العقل النظري منتحياً للعقل ، وهو  
يستمد أصوله من نفسه كالعقل النظري مجرداً من كل تجرية ؛  
رى الشريعة التي يرتها على نفسه تصير شريعة عامة ، وليست  
هذه الشريعة محدودة بفكرة الخير والشر ، وإنما هي فكرة  
محدودة بنفسها ، تنبثق من ذاتها وتعود إلى ذاتها ، فماتراه الأخلاق  
خيراً يكون خيراً وماتراه شراً يكون شراً ، وهذه الشريعة تولد  
رأساً من الشعور لا تقتصر الى شيء من النطق ، ولا محتاج الى  
نظرة من نظرات العقل ، وإنما هي تفرض نفسها بنفسها إذا فرضت ،  
كأنها صيغة أمر شامل مطلق ، والشريعة الأخلاقية هي لغة  
الطبيعة السامية في الانسان ، وقد يسمو الانسان بقدر ما تنجلي  
فيه هذه الشريعة على قدر ما توأم أعماله قواعدها

وهكذا جرب كانت أن يجمع كل ما محتوى عليه الشريعة  
الأخلاقية في دستور واحد يضم إليه جميع ما يركب الانسان من  
واجبات في المجتمع ، وهذا هو الدستور أو الكلمة الجامعة التي  
يريدنا الفيلسوف « اعمل دائماً عملاً وأنت تمنى أن الطريق  
الذي سلكته يصبح شريعة عامة » ألبت هذه الكلمة هي  
صدي الكلمة القديمة القائلة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك  
به » إن هذه الكلمة لا تتحدد إلا علاقة الفرد مع الفرد ، وكلمة  
( كانت ) تضع الانسان الفرد إزاء المجتمع كله ، فإذا قدر للخير  
أن يمتد سلطانه ويظهر أمره في الأرض فإنا نظهر جهود الناس  
التضاهرة وسمو طبيعتهم العالية ، وهكذا بنى ( كانت ) على هذه القواعد  
نظرية جديدة في عالم ما وراء الطبيعة ووجد مجالاً جديداً لبحث  
عن الحرية والخلود ووجود الله بعد ما ترك العلم النظري هذه العوالم  
كلها فراغاً ياباً . فإذا كانت الشريعة الأخلاقية فرضاً على الانسان  
وديناً لا مفر منه ، وإذا كانت هذه الشريعة واجباً مطلقاً عنده ،  
فهي ذلك لأنه قادر على إتمامها ، إذا فالانسان حر ، والحرية هي ابنة  
التعور الطبيعي ، والحرية هي ضالة العقل العملي . وقد لا نستطيع  
أن تثبت وجود الحرية نظرياً ، ولكنها تستمد وجودها من وجود  
الشريعة الأخلاقية التي يتوقف فهمها على وجودها . وكذلك  
الأمر في بقاء الروح ووجود الله

العقل العملي يمتد نينا نشاطاً غريباً يدفعنا الى مثل الكمال .  
هنا المثل الذي يملك علينا سلطانه كل شيء هو سلطان الخير المطلق .